في الأصول الفلسفية للتربية الاسلامية

الدكتور عبد الحي محمد قابيل

الاستاذ المساعد بقسم الدراسات الاسلامية

بكلية الآداب - جامعة المنيا

لاشك في أن لكل نظام اجتماعي أصوله الفلسفية التي تكمن وراءه، وتشكل اتجاهاته وغاياته، كما أنها تشكل وسائله التي ينبغي عليه أن يستخدمها من أجل تحقيق هذه الاتجاهات والوصول الى تلك الغايات.

ولما كانت «التربية» في كل المجتمعات المتحضرة تمثل جزءاً من النظام الاجتماعي الذي يسود في هذا المجتمع أو ذاك، فلابد لها أيضا من أصول فلسفية تشكلها، وتمثل جزءا من الفلسفة التي تحكم النظام الاجتماعي الذي تتبعه.

كما أننا نرى - بالإضافه الى ذلك - أن هناك ارتباطا وثيقا بين التربيه وبين تلك الفلسفة التي تكمن وراء النظام الاجتماعي للمجتمع أو للأمة بأسرها، بمعنى أنه اذا كانت التربيه نتيجه حتمية لفلسفة المجتمع، فان القائمين على هذه الفلسفة أو الثقافة يعملون على نشر مبادئ فلسفتهم أو ثقافتهم التي يدينون بها بالتربيه التي يتذرعون بها من أجل نشر مبادئهم وفلسفتهم.

ولقد شبه أحد الفلاسفة والمربين المعاصرين **التربيه والفلسفه** بوجهي العمله، لأن الفلسفة والتربية لايفترقان، وتستند كل منهما على الأخرى، فتقوم

---

١ - انظر : فتحيـــــة سليـــمان : التربية عند لغزالي - أبو حامد الغزالي في ذكراه ، ص ٧٧١.

التربيه بنشر المذهب الفلسفي وتعليمه للناس، وتقوم الفلسفة بتحديد النظام التربوى ورسم الوسائل والطرق التى تساعد على الوصول الى هذا الهدف.

فى هذا الاطار كانت التربيه الاسلاميه انعكاسك لتلك الفلسفة أو الثقافة التى بدأت تتحدد معالمها مع ولادة الدولة الاسلاميه.. تلك الفلسفة الى انبثقت أصولها من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، حيث استلهمت لها من جهة أخرى. وقد فطن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام الى أهمية هذه التربية، فقام بوضع اللبنة الأولى فيها حينما دعا الى تعليم القراءة والكتابة، وشجع على ذلك بافتداء أسرى بدر بتعليم عشرة من أبناء المسلمين. ولم يكد القرن الثاني الهجرى يطلع حتى كان ثمة جهاز تربوى متغلغل فى كل ناحية من نواحي المجتمع الاسلامى ابتداء من الكتاتيب التى تعلم الأطفال والصبيان الى المدارس العليا التى تعلم الكبار. وقد ازدهرت الحضارة الاسلاميه بسبب دقة هذا النظام وانتشاره، فكانت تلك التربية محققه لروح الاسلام وفلسفته أيضاً.

مشكله التربية المعاصرة فى العالم الإسلامى:

نعم .. لقد صارت التربية - فيما نرى - اليوم فى الدول الاسلامية فى مشكله .. فحقيقه التربيه كما هى دائماً لابد - كما أكدنا من قبل - أن تكون انعكاسا لفلسفة الأمة وثقافتها. ولكننا اذا ماتساءلنا اليوم : هل نظام التربيه فى بلادنا الاسلامية يعتبر تعبيرا عن روح ثقافتنا أو فلسفتنا العربية الاسلامية المستمدة من عقيدتنا الاسلامية وتراثنا العربى الاسلامى، بحيث تكون مؤهلة بالفعل لتخريج طلاب من المدارس الحالية مسلمين بمعنى الكلمة، أو منتمين للحضارة العربية الاسلامية، كما كان شأن أسلافهم منذ عشرة قرون مضت؟.

أما وأن الأمر قد اختلف وأصبحت التربية الممارسة بالفعل فى مدارسنا اليوم، وهى مايطلق عليها التربيه الحديثه .. هى تربيه مستمده من بلاد غربية علينا حضاريا، لها فلسفتها المختلفة فى جوهرها عن الفلسفة العربية الاسلامية التى يتحتم أن تكون الأم الحاضنه للتربيه التى ينبغى أن تطبق فى بلادنا الاسلامية؟. وبالتالى فالتربيه الحديثه - كما هى اليوم - أصبحت غير مؤهله لتخريج الطلاب المسلمين حقا كما كان شأن أقرانهم فيما سلف .. ولعله ليس من قبيل الصدفه أن ارتبط ذلك بعدم القدرة أو العجز عن تحقيق الحضارة الاسلامية المتميزة التى تعبر عن روح الفلسفة أو الثقافة الاسلامية الحقة.

وربما يتساءل البعض - ونحن بهذا الصدد - هل يعنى ذلك الدعوة الى الانغلاق، وعدم الأخذ من نتاج الغير الحضارى والثقافى؟ والاجابه بالتأكيد عن هذا التساؤل بالنفى، وخيره دليل على ذلك هو انفتاح المسلمين طوال أيام مجدهم وتقدمهم على غيرهم من أصحاب الثقافات والحضارات المختلفه، بل وأخذهم منهم ماأخذوا، ولكنهم كانوا فى اخذهم لايأخذون ولاينقلون الا ما يتفق مع أصول فلسفتم أو ثقافتهم الاسلامية، ليصهروه مع هذا الأصول ، الأمر الذى كتب معه لهذه الفلسفة الاستمرار زمنا طويلا، لتعبر عن روح الاسلام، وتعمل على صنع الحضارة الاسلامية، مما أدى الى أن يبقى « للثقافة الاسلامية» طابعها المميز، وشخصيتها الواضحة، فلم تكن امتدادا لثقافة أخرى، بل كانت اضافة جديدة أصيلة الى تراث الانسانيه الثقافى والحضارى، وكانت حلقه أساسية فى التطور المتصل لهذا التراث، لولاها ما كان للحلقات التاليه أن تنمو وتتطور بنفس الطريقة التى نمت وتطورت بها[1]

---

١ - د. عبد الحكيم حسان : التأثير الأجنبى فى الثقافة العربيه الأسلامية، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، سنة ١٣٩٥ هـ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

اذن، ما الفارق بين ما أخذته فلسفتنا أو ثقافتنا العربيه الاسلاميه بالأمس، وبين ما أخذته اليوم؟ يرد أحد الباحثين هذا الاختلاف الى أسباب ثلاثه : **أولها** أن الثقافه العربية العربية الاسلاميه لم تتأثر فى القرون الوسطى بثقافات معاصرة (لها) بل كانت كلها ثقافات سابقة عليها زمنا، ولذلك أطلق المسلمون على هذه الثقافات اسم «تراث الأوائل» أو «علوم الأوائل» أو ما شابه ذلك من التسميات التى تدل على التقدم الزمنى لهذه الثقافات.

وثانى هذه الأسباب : وهو وثيق الصلة بالسبب الأول، أو مترتب عليه، أن تلك الثقافات لم يصاحبها نفوذ سياسى أو عسكرى يفرضها على المجتمع الاسلامى، بل لقد كان الأمر على العكس من ذلك، اذ كان النفوذ للمسلمين، وبذلك لم يتعرضوا لتلك الحالة النفسية الأليمة التى يسميها ابن خلدون «**ولع المغلوب بتقليد الغالب**». **أما السبب الثالث** فهو أن الثقافات الأجنبية فى العصور الوسطى لم يصحبها تقدم صناعى وتكنولوجى يمكن أن يتخذ مقياسا ماديا لدرجه التقدم الحضارى، ويجعل الهوة التى تفصل بين المتقدم والآخذ بأسباب التقدم تزداد اتساعا مع الزمن.

لهذا كله تعامل المسلمون مع هذه الثقافات الأجنبيه من مركز القوة كما يقال، فكانوا أحرارا فيما يأخذون ومايدعون، فأخذوا من هذه الثقافات المادة التى بنوا عليها، ولكن بناءهم كان على طريقتهم الخاصه، اذ تم حسب مناهجهم هم، وتحقيقا للغايات التى آمنوا هم بها.

أما فى العصر الحديث فان الثقافة العربية الاسلام تواجه تأثير ثقافات معاصرة، ولهذه الثقافات من النفوذ السياسى بل والعسكرى أحيانا ما يمكن من

---

١ - المصدر السابق، ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

فرضها على المجتمع العربى المسلم. ثم ان هذه الثقافات لها من التقدم الصناعى والتكنولوجى مالا يفتأ يذكر بعمق الهوة التى تفصل بين المتقدمين والآخذ ين بأسباب التقدم. ولهذا منى المجتمع العربى المسلم بالاعجاب «بالغالب والولع بتقليده»[١]

خطر استمرار هذا الوضع :

واذا ما اتضحت لنا المشكله التى تعانيها التربيه الاسلاميه فى ظل أخذنا بما يسمى مناهج التربيه الحديثه بعيدا عن الأخذ بعين الاعتبار لأصول التربيه الاسلاميه الحقه، النابعة من الفلسفه أو الثقافه الاسلاميه المعبره عن روح الاسلام، عقيده وحضارة، فاننا سنظل سائرين فى الطريق الذى سيؤدى بنا الى المزيد من فقدان الثقه فى أنفسنا، والاحساس دائماً بالاغتراب، بل وتصديق المقوله الغربيه القائلة بأن الاسلام «جهد ضائع».

واذا ما أعدنا الى الأذهان أن هذه التربيه المسماه بالتربيه الحديثه هى بدورها انعكاس لفلسفة الأمه التى نشأت فى أحضانها .. تلك الفلسفة الغربية التى قامت على أساس المدنية الرومانيه الوثنية، التى لاتؤمن بغير القوة، وهى على خلاف أسس أو أصول الفلسفة أو الثقافة الاسلامية التى تقوم على الروح والأخلاق والمثل العليا، والتى ينبغى أن تنعكس عنها التربيه الاسلامية، فاننا لانستطيع مع ذلك أن نتوقع أن تظل تنشئه احداث المسلمين على أسس تربويه غربيه دون أن يتسرب معها الى أشخاص ناشئة المسلمين تلك الروح المعادية للاسلام، وبالتالى لروح ثقافتنا وفلسفتنا الاسلامية التى تعبر عن ذاتنا العربية الاسلاميه، وذلك لأننا لايمكن أن نحافظ على هذه الذاتية الخاصه لنا شئنا دون النظر الى البيئة الثقافية التى تحيط بهم. ولنتخيل «طفلا قد أبى منذ أيامه الأولى تربيه منظمة على سماع الحان موسيقية تامة الأداء، ان هذا الطفل يشب وأذنه متعودة تمييز الأنغام والايقاع

---

١ - المصدر السابق ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

والانسجا. واذا لم يصبح هذا الطفل فى مقتبل حياته قادرا على التأليف الموسيقى والأداء فانه على الأقل يصبح قادرا على فهم أعقد أنواع الموسيقى، ولكن طفلا لم يتح له فى حياته الأولى أن يسمع شيئا من الموسيقى قد يتعذر عليه فى مقتبل عمره أن يدرك بسائطها، وكذلك الحال فى الجماعات . فكما أن هنالك أفرادا ضنت عليهم الطبيعة بأذن موسيقية أبدا فان هنالك أيضا - على وجه الامكان لا على وجه التحقيق - أفرادا فى آذانهم وقر عن سماع صوت الدين ، الا أن الذى يتعلق بالعديد الأكبر من البشر العاديين أن الايمان والجحود (عندهم) يفصل فيها الجو الذى نشأوا فيه.

من أجل ذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «ما من مولود الا ويولد على الفطره فأبواه يهدد انه أو ينصرانه أو يمجسانه » . ان التعبير «ابواه» يمكن منطقيا أن يتناول البيئة العامة التى تتحكم فى تطور الطفل .. وليس لأحد أن يتردد فى الاعتراف - والحالة الحاضرة على ماهى عليه من الانحطاط - بأن الجو الدينى فى كثير من بيوت المسلمين قد بلغ من التدنى والانحلال الفكرى حدا أخذ يثير فى الأحداث الناشئين عوامل الاغراء الأولى لأن يولوا الدين ظهورهم. وهذا يمكن على التحقيق أن يكون كذلك، أما فى حالة تعليم ناشئة المسلمين على أسس غربية فان التأثير سيكون على الأرجح موقفا عدائيا من دينهم[١] ».

تحديد المعنى المقصود بالتربيه فى الإسلام:

التربيه لغة من « تربيه»، وتربب الصبى : أى رباه حتى أدرك[٢] ، بمعنى

---

١ - محمد اسد : الاسلام على مفترق الطرق، ص ١٨ - ١٩.

٢ - المنجد : مادة : رب

نماه ونشأه. وقد قلبت الباء الثانيه ياء للتخفيف[٣] ، فقيل: ربى . ومنها جاءت كلمة «تربيه»، وبهذا المعنى الضيق لكلمة «تربية» نجدها فى **القرآن الكريم** قد وردت فى موضعين، فى قوله تعالى : « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا» [١] وفى قوله تعالى : «قال ألم يربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين»[٢] .

ويتبين من هاتين الآيتين أن المقصود بالتربيه هو عملية الاعداد والرعاية فى مرحلة النشأة الأولى للانسان، أو كما نقول اليوم فى مرحله الطفوله المبكره، ويشير استخدام الكلمة فى الآية الأولى الى أن التربيه فى هذه المرحلة مسئوليه الأسرة حيث يقوم كل من الأم والأب برعايه الطفل والعطف عليه، وهو صغير محتاج، ويتعبان فى سبيل غذائه وكسوته وراحته، ويعلمانه أساسيات السلوك، ويقومان بارساء الأساس فى بناء شخصيته، فاستحقا منه أن يحسن معاملتهما عندما يكبران، وأن يدعو لهما بالرحمه جزاء ماقدما.

وأما فى الآية الثانيه، فيمتن فيها فرعون على سيدنا موسى عليه السلام بأنه رباه وهو صغير ولم يقتله ضمن من قتل من الأطفال انذاك، ويذكره بأنه لبث عنده فى داره عدة سنين، وذلك عندما أمر الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام بالذهاب الى فرعون ليبلغه رسالة ربه. وهكذا يرتبط مصطلح «**التربيه**» فى الآيتين بالاعداد والرعاية فى مرحلة الطفوله بالبيت»[٣]

واذا كان هذا هو المعنى الضيق للتربيه، أو اذا كانت هذه هى **الوظيفة الأولى**

---

٣ - انظر : ابراهيم الابيارى ك الموسوعة القرآنية جـ ٣ مادة «ربو»، ص ١٢٩.

١ - سورة الاسراء آية ٢٤

٢ - سورة الشعراء آية ١٨.

٣ - دكتور عبد الفتاح جلال : من الأصول التربوية فى الاسلام، المركز الدولى للتعليم

لها، فان للتربيه معنى أوسع، ووظيفة أكبر تمتد مع النشئ طوال سنى عمره بعد مرحله الطفوله هذه ، وهو المعنى أو الوظيفة التى تتفق مع معنى التعلم والتعليم ، ومن أجل ذلك شاع القول : «التربية والتعليم». واذا تركنا جانبا التحديدات المختلفه للتربيه بهذا المعنى الواسع والتى نجدها عند القدماء والمحدثين على السواء، والتى يتحملها أولا يتسع لها بحثنا هذا، يمكن أن نورد تحديدا مجملا لها مؤداه أن التربيه تعد تنفيذا عمليا لتنشئة الطفل وتكوينه جسميا وعقليا ونفسيا وروحيا وأخلاقيا، وذلك باستخدام جميع الطرق والوسائل والأساليب والحقائق العلمية التى تساعد على تنشئة الطفل وتكوينه على ذلك النحو فى كل مرحله من مراحل نموه حتى نهايه نضجه وكماله الانسانى فى ضوء الفلسفه التربويه التى تتبعها هذه التربيه أو تلك لتكوين الانسان وتشكيله على النحو الذى ترى تشكيله عليه فى المجتمع الذى تريد بناءه عن طريق تشكيل الأفراد وتكوينهم.(١)

وفى هذا المعنى الاصطلاحى الواسع للتربيه نقرأ لأبى حامد الغزالى قوله «والصبى أمانه عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجه، خاليه من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل الى كل مايمال به اليه ، فان عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخره، وشاركه فى ثوابه أبواه، وكل معلم له ومؤدب، وان عود الشر وأهمل اهمال البهائم، شقى وهلك ، وكان الوزر فى رقبه القيم عليه والوالـــــى له . وقد قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا)(٢)

الوظيفى للكبار فى العالم العربى، مصر سنة ١٩٧٧، ص ١٧.

١ - انظر : دكتور مقداد بالجن : التربيه الأخلاقية الاسلامية، مكتبة الخانجى بمصر سنة ١٣٩٧ هـ ص ٥٣.

٢ - سورة التحريم آية ٦

ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا، فبأن يصونه من نار الآخره أولى، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولايعود التنعم، ولايحبب اليه الزينه وأسباب الرفاهية فيضيع عمره فى طلبها اذا اكبر، فيهلك هلاك الأبد، بل ينبغى ان يراقبه من أول أمره، فلايستعمل فى حضانته وارضاعه الا امرأه صالحه متدينة تأكل الحلال، فان اللبن الحاصل من الحرام لابركة فيه، فاذا وقع عليه نشؤ الصبى انعجنت طينته من الخبث، فيميل طبعه الى ماينا سب الخبائث».(١)

واذا نظرنا الى نص قول **الامام الغزالى** هذا نجده يركز على ثلاثه أمور أولها اختيار الأب أو ولى الأمر للمحيط الذى يمثل مجتمع الطفل ألا وهو قرناؤه فيحرص على أن يكونوا قرناء خير لا قرناء سوء. الأمر الثانى : هو تكوين ذات الطفل ليكون رجلا بتعويده على الخشونه والبعد به عن حياة التنعم والميوعة، وذلك ليضمن له ضميرا حيا وقويا لايكون الا للرجال. الأمر الثالث : هو الحرص على غرس بذرة الدين فى الطفل منذ نعومة أظفاره، وذلك باختيار المرأة الصالحة المتدينة التى تقوم على ارضاعه ورعايته.

والاسلام قد أولى قضية اختيار المرأه سواء كزوجه أو كمربيه اهتماما كبيرا، فقد جاء فى الحديث الشريف عن اختيار الزوجه عن أبى هريره رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «تنكح المرأة لأربع، لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك». وقيل : متفق عليه مع بقيه السبعة.(٢)

وفى اختيار المرضعه جاء فى الحديث أيضا : وعن زياد السهمى رضى الله

---

١ - ابو حامد الغزالى : احياء علوم الدين، ط الشعب، ص ١٤٦٨.

٢ - ابن حجر العسقلانى : بلوغ المرام من أدلة الأحكام. ط. بيروت، ص ١٧٨ - ١٨٩.

عنه قال «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسترضع الحمقى» أخرجه أبو داود وهو مرسل»(١)

ولعلنا من ذلك كله نكون قد وصلنا الى تحديد دقيق للمعنى المقصود بالتربيه بصفه عامه والتربيه الاسلامية بصفه خاصه، ومنه نستنتج مدى اهتمام الاسلام بتربيه النشء المسلم، ووضع الضمانات اللازمه لنشأته نشأه مستقيمة، تصنع منهم رجالا قادرين على حمل الأمانه، واستخلاف الله فى الأرض من خلال صنع حضارة اسلاميه تعنى بالروح كما تعنى بالمادة، وتحرص على مايقومها من مبادئ ومثل وقيم روحية وأخلاقية، الأمر الذى يجعل من نظام التربيه الاسلاميه بهذا المعنى أمرا ضروريا لاغنى عنه. ما هى المجالات التى ينبغى أن تعنى بها التربية؟. هذا ما سنجيب عليه فى الفقرة التالية.

ضرورة التربية الإسلاميه لعقول النشء

اذا كانت أمتنا العربيه تتطلع فى الآونة الأخيرة الى تجديد الفكر التربوى الاسلامى فما أحوجها الى التركيز على تربيه عقول النشء من أبناء المسلمين، لكى يتخرج منهم أجيال قوية بقوة أفرادها وقيمتهم، وذلك عن طريق جعلهم أصحاب عقول قادرة على التفكير والاجتهاد، متطلعة الى التغيير واعادة البناء على ماهو أحسن وأفضل باعمال عقولهم سواء كان ذلك فى مجال العقيدة والفكر أو فى مجال البناء والتعمير، ولننظر معا قول اقبال فى هذا بعد أن كشف عما أصاب الأمة الاسلامية من جمود وتخلف، بسدهم لباب الاجتهاد، وتعطيلهم لاعمال العقل، وذكر ما رآه أسبابا ومبررات أدت الى هذا، فيها الصواب وفيها الخطأ، وان كان

---

١ - المصدر السابق ص ٢٠٨.

الخطأ أفدح، فعنده «ان مصير شعب من الشعوب لايتوقف على النظام بقدر ما يتوقف على قيمة الأفراد وقوتهم.

والجماعة التى يسودها التنظيم الزائد يتلاشى فيها الفرد من الوجود تلاشيا تماما، اذ هو يجنى قطاف كل ماحوله من تفكير اجتماعى ولكنه يفقد روحه هو، ولهذا فان تبجيل التاريخ الماضى تبجيلا زائفا وبعثه المصطنع ليس علاجا لانحلال شعب من الشعوب .. ذلك لأن القوة الفعاله الوحيدة التى تقاوم قوى الانحلال فى شعب من الشعوب هى تنشئة أفراد ذوى فرديه قوية. ومثل هؤلاء الأفراد هم وحدهم الذين تتجلى فيهم أعماق الحياة. فهم يجهرون بمقاييس جديدة، نبدأ نرى فى ضوئها أن بيئتنا ليست واجبة الحرمة فى كل شئ، بل تفتقر الى التعديل.[١]

ولعل العقيدة الاسلامية، والروح الأصلية للاسلام تعد من أكثر العقائد الدينية ان لم تكن أكثرها قاطبه تعظيما للعقل، ورفعا لقيمته، يقول تعالى : (ان فى خلق السموات والأرض لآيات للمؤمنين، وفى خلقكم ومايبث من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون)[٢] .

ثم يقارن القرآن الكريم بين ذلك الذى يعقل وبين ذلك الأصم الأبكم الذى لايعقل، **فيقول عز وجل** : (ان شر الدواب عند اللـه الصم البكم الذين لايعقلون)[٣].

---

١ - محمد اقبال : تجديد الفكر الدينى فى الاسلام، ص ١٧٤.

٢ - الجاثية ٣ - ٥ .

٣ - الانفال ٢٢

كما ينكر سبحانه وتعالى على المشتركين متابعتهم لأهليهم الذين ألقوا بعقولهم جانبا مما جعلهم يعبدون الأصنام، فيتابعونهم فى ذلك، ولو فكروا لوجدوا آباآهم كانوا على ضلال، وأنهم لايعقلون، فيقول سبحانه وتعالى (واذا قيل اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون)[١]

وقد خاطب القرآن الكريم العقول فى بنى الانسان، حتى فى اخطر أمور العقيدة، فنجده فى أمور الألوهية يقر بوحدانية الله تعالى : «قل هو الله أحد .....» [٢]

وأنه مالك الملك ولا خالق سواه، وهو ليس بالهين ولا ثلاثه ولا أكثر من ذلك، ويخاطب العقل فى هذا بالدليل فيقول تعالى (لو كان فيهما الهه الا الله لفسدتا)[٣] والله تعالى ليس كوكبا وليس قمرا ولس شمسا فينهى الناس عن عباده الشمس والقمر : (لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن)[٤]

ولكن الاسلام فى كل ذلك لايفرض الأمر على معتنقيه فرضا، لأنه لادجماطيقية فى العقيدة الاسلامية، وانما هو عقيدة وايمان لابد له من أن يوقر فى القلب وينطق به اللسان ويصدقه العمل، وهذا لايتم الا بالقناعه، وعمل الاسلام على تحقيق هذه القناعة بين المسلمين، وذلك بالجوار العقلى الذى يسلم صاحب العقل الصريح الى التسليم والاعتقاد، ولنقرأ معا قول الله تعالى ،واتل عليهم نبأ ابراهيم

---

١ - البقرة ١٧٠.

٢ - الصمد ١

٣ - سورة الانبياء آية ٢٢.

٤ - سورة فصلت ايه ٣٧

اذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم اذ تدعون او ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فانهم عدو لى الارب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين)[١]

ثم يكشف أمام العقل مغبه العاقبه التى تؤول اليها حالة الطواغيب الذين يلغون عقولهم وتبطرهم السلطة والمال فينكروا الله، ويدعوا الناس الى عبادتهم، وهو ما آل اليه حال فرعون، يقول تعالى (وقال فرعون يا أيها الملأ ماعلمت لكم من اله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وانه لأظنه من الكاذبين).[٢]

ولكننا نجد القرآن الكريم يصور لنا فرعون هذا بعد أن عاجلته عقوبه الله سبحانه وتعالى يفيق الى رشده، ويعرف قدره، ويعلن ايمانه برب موسى الذى أنكر من قبل، يقول تعالى (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا أدركه الغرق قال أمنت أنه لا اله الا الذى أمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين[٣]

ولم يقف الاسلام عند هذا الحد من بيان دور العقل وفضله، بل تضمن أيضا ضرورة الدعوة الى اعمال العقل لمعرفة النفس ومعرفه العالم الذى يحيط بالانسان، نعم.. ان وظيفة هذه الدعوة بالدرجه الأولى هى الوقوف على معرفة

---

١ - سورة الشعراء ايه ٦٩ - ٨٢

٢ - سورة القصص ايه ٣٨.

٣ - سورة يونس أية ٩٠.

صانع الناموس الذى يحكم دقائق النفس الانسانيه، ويحكم أيضا النظام الكونى الذى نعيش فيه .. ألا وهو الله تعالى الحكيم العليم، ولكنه أيضا يكمن فيها العلم بكل العلوم والفنون التى توصل اليها الانسان من خلال البحث والنظر سواء كانت هذه العلوم رياضية أو طبيعية أو علوما انسانيه، ترى هذا كله فى تلك الكلمات الموجزه التى جاءت فى قوله تعالى (وفى انفسكم أفلا تبصرون)[١] . وفى قوله عز وجل (سنريهم آياتنا فى الافاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق.[٢]

ويترجم هذا كله فى المبدأ الذى قرره الاسلام فيما يعرف بالاجتهاد، وهو بذل الوسع فى استعمال العقل للتوصل الى الإحكام أو الوقوف على أسرار النفس والكون مما لم يرد فيه نص ثابت يبين كنهه. يقول تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)[٣] كما يرد ذلك بصورة أكثر وضوحا فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضى الله عنه حينما بعثه الى اليمن : كيف تصنع ان عرض لك قضاء؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله . قال : فان لم يكن فى كتاب الله؟ قال : فبسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال : فان لم يكن فى سنه رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيى الا الو . قال : فضرب بيده صدرى وقال : الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضاه رسول الله)[٤]

وليس من قبيل الصدفة أن يرتبط ازدهار الأمة الاسلامية بفتح باب الاجتهاد الذى أرسيت أصوله فى كتاب الله، كما تاكدت قواعده ايضا بسنه رسول الله

---

١ - سورة الذاريات ايه ٢١.

٢ - سورة فصلت ايه ٥٣.

٣ - سورة العنكبوت ايه ٦٩.

٤ - انظر : ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ص ١٣٢.

صلى الله عليه وسلم، وأن يرتبط تخلف الأمه الاسلامية، وانحسار حضارتها بسد باب الاجتهاد، واحلال التقليد محله، ذلك لأن الاجتهاد يتم من خلال اعمال العقل وبالتالى بالتأكيد على الفردية الأنسانيه، ولكن التقليد يقوم على الأخذ من الغير أو تقليد الغير دون نظر أو بحث عن دليل أو حجة أو برهان على مايؤخذ، مما يعطل الوظيفة الحقيقية للعقل الذى يمثل جوهر الانسان، وبالتالى تضيع الفردية أو تضعف ومعها تضعف الأمه بأكملها، ويلحقها ما يلحقها من تخلف ،انحسار فى حضارتها، وتغلب الغير عليها. وقد نبه الى ذلك علماء السلف الصالح وحذروا منه عندما استشعروه، ولننظر مثلا ابن حزم وهو يهاجم الآخذين بالتقليد، أو المتمسكين بآراء الآخرين دون نظر أو اعتبار لحجه أو برهان، فيقول : «والتقليد حرام ولايحل لأحد أن يأخذ بقول أحد من غير برهان «ويقول فى موضع آخر : «اياك وتقليد الآباء، فقد ذم الله عز وجل ذلك، ولو كان محمودا لعذر من وجد آباءه زناه أو سراقا، أو على بعض الخلال التى هى أخبث مما ذكرنا أن يقتدى بهم» ومعنى هذا أن ابن حزم يرفض «المذهبية» ويأبى أن يجيز لأى انسان يجئ الى عالم فيأخذ كل أقواله، ويقلدها ويتبعه فى كل ماوصل اليه، دون أن يفرق بين قول وقول، أو بين رأى ورأى.

ويمضى ابن حزم الى حد أبعد من ذلك فيقول : «اياك والاغترار بكثره صواب الواحد فتقبل له قوله واحده بلا برهان، فقد تخطر فى خلال صوابه بما هو ابين وأوضح مما أصاب فيه «ومعنى هذا أن ابن حزم يرفض كل سلطة فكرية «لأنه يرى أن المصيب قد يخطئ، والسائر فى طريق الحق قد يضل، فلا موضع للتسليم، بأى مذهب من المذاهب فى جملته وتفصيله، ولاموجب للأخذ عن أى امام من الأئمة، وكأنما هو نبى معصوم تماما من الخطأ [1] .

١ - انظر : دكتور سعيد اسماعيل على : دراسات فى التربيه الاسلاميه ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

ومن قبل قد برأ أئمة السلف الصالح أنفسهم مما قد يقع فيه من لحقهم من تقليدهم فيصيبهم مايصيب المقلده، فمما يروى عن الامام مالك رضى الله عنه أنه قال : ليس كلما قال رجل قولا وان كان له فضل يتبع عليه، بقول تعالى (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)[1] وهذا الذى ذكره مالك، رحمه الله، قد رددده الأئمة الثلاثة من بعده، فمما أثر عن أبى حنيفة والشافعى رحمهما الله انهما قالا «اذا صح الحديث فهو مذهبى» وعن ابى حنيفه ايضا انه قال أيضا أنه قال : «لايحل لأحد أن يأخذ بقولنا مالم يعلم من أين أخذناه «وعن مالك أيضا أنه قال : «انما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا فى رأيى، فكل ماوافق الكتاب والسنه فخذوه وكل مالم يوافق الكتاب والسنه فاتركوه، كما جاء عن انه قال «ليس لاحد بعد النبى صلى الله عليه وسلم الا ويؤخذ من قوله ويترك الا النبى صلى الله عليه وسلم وكذلك نجد الامام احمد بن حنبل يقول : «لاتقلدنى ولاتقلد مالكا ولا الشافعى ولا الأوزعى ولا الثورى وجد من حتب اخذوا ومن أقواله ايضا : رأى الأوزعى رأى، ورأى مالك رأى ابى حنيفـــه رأى، كله رأى، وانما الحجه فى الآثار»[2]

ولكننا - مما يؤسف له - نجد الآن - بعد أن بعدناعن تراثنا الذى ينبغى أن نستمد منه مناهجنا - من العلماء من يفرض أقواله على تلاميذه زاعما انه صاحب الرأى الأوحد فى مجاله، وما على تلاميذه الا أن يقلدوه، أو يأخذوا برأيه دون مناقشه، والا كان الضلال من نصيبهم، كما أننا نجد من التلاميذ والأتباع والرواد من يتخذون لهم أساتذه وشيوخا يتبارون فى تقليدهم، ويحرصون على عدم

---

١ - سورة الزمر آية ١٨، وابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله ٢/١١٤.

٢ - انظر : دكتور محمد رشاد سالم : المدخل الى الثقافة الاسلامية، ص ١١١.

مناقشتهم، بل التسليم المطلق والقبول بلا حد ، لكل مايقولون ومايسلكون، دون أن يتبعوا أنفسهم، ولو بمجرد التفكير والنظر فى مدى صواب أو عدم صواب مايقلدونهم فيه.

وما أحوجنا اليوم اليوم - ونحن بصدد تجديد الفكر التربوى الاسلامى، أو اعاده صياغه فكر تربوى اسلامى أصيل، يتخذ من المنابع الاسلاميه أصوله أن نعود الى ذلك التراث لكى نهتدى به حينما نحاول اعادة هذه الصياغه، او حينما نحاول أن نضع للتربيه الاسلامية، مناهج اسلامية حتى نعمل من خلال تربيه النشء المسلم، على بناء شخصيته الفرديه الصحيحه، التى تقدر بدورها على تجديد أو اعادة بناء الأمة الاسلامية لتحتل مكانتها الشامخه بين الأمم.

واذا عدنا للتراث نستلهمه الجواب أو الحل لهذه المسألة، نقرأ عن الماوردى مثلا من بين ما أوجبه على الطلاب المتعلمين تجاه معلميهم بعد أن أوصاهم، باحترام معلميهم وتوقيرهم، يحذرهم من الآخذ عنهم تقليدا أعمى دون نظر فى دليل أو حجه فيقول : «ولاينبغى أن يبعثه (أى المتعلم) معرفه الحق له (أى المعلم) على قبول الشبهه منه، ولايدعوه ترك الاعنات له على التقليد فيما أخذ عنه، فانه ربما غالى بعض الأتباع فى عالمهم، حتى يروا أن قوله دليل، وان لم يستدل ، وأن اعتقاده حجه وان لم يحتج ، فيفضى به الأمر الى التسليم له فيما أخذ عنه، ويؤول به ذلك الى التقصير فيما يصدر منه، لأنه يجتهد بحسب اجتهاد من يأخذ عنه، فلايبعد أن تبطل تلك المقاله ان انفردت، او يخرج اهلها من عداد العلماء فيما شاركت، لأنه قد لايرى لهم من يأخذ عنهم ، بما كانوا يرونه لمن اخذوا عنه، فيطالبهم بما قصوا فيه، فيضعفوا عن ابانته، ويعجزوا عن نصرته، فيذهبوا ضائعين، ويصيروا عجزه مضعوفين»[١]

١ - ابو الحسن الماوردى أدب الدنيا والدين، ط مصطفى الحلبى، مصر، سنة ١٣٧٥ هـ ، ص ٧٧ - ٧٨.

ويقابل ذلك من المعلم ضرورة النصح لمن يعلمهم والرفق وتسهيل السبيل عليهم، وبذل المجهود فى معونتهم، كما ينبغى عليه أيضا الا يعنف من يعلمهم، ولايحقر ناشئهم، ولايستصغر مبتدئهم، كما أن عليه ألا يعنف طالبا ولاينفر راغبا، ولايؤنس متعلما، لما فى ذلك من قطع الرغبه فيهم والزهد لديهم، مما يؤدىالى انقراض العلم بانقراضهم[١] . وكلها سمات سواء ماخص منهاالمتعلم او ماخص المعلم تؤدى الى غرس الاحترام المتبادل بين كل من المعلم والمتعلم، وهى علاقه لاتقل بأى حال من الأحوال عن علاقة الأب بابنه، وكل منهما - المعلم والأب - يعمل من جانبه على تنشئة الطالب أو الابن تنشئة سليمة صحيحة، سواء من ناحية تكوين البدن، أو تربيه العقل، مما يتكون به تكوين فرد كامل البنيه له فرديته القادره على العطاء، من اجل بناء ذاته، وبناء مجتمعه، هذا هو الذى ينبغى أن تستهدفه فلسفه التربيه الاسلاميه.

ماهيه المعرفة الإسلامية:

قد يدهش القارئ لأول وهله عندما يقرأ عبارة «ماهية المعرفة الاسلامية»، وقد يتساءل : وهل توجد معرفه اسلاميه، ومعرفه غير اسلاميه، أم أن هناك معرفه انسانيه تعم سائر البشر؟ نعم الحق هو القول بوجود معرفه انسانيه، وهى بالمعنى المستقيم تعنى ماتعنيه بالمعرفه الاسلاميه لوجود تطابق بين الاسلام وبين الفطرة الأنسانية التى فطر الله الناس عليها.

ولكننا نجد من الناس من انحرف عن هذه الفطرة يمينا أو يسارا فاختط

---

١ - المصدر السابق، ص ١٩٣.

لنفسه مصدرا قاصراً عرف نفسه والكون من خلاله، فجاءت معرفته قاصره، فكما يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وحسب رواية أبى هريرة : «مامن مولود الا ويولد على الفطرة بأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» ، ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا ان شئتم: «فطره الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله » الآية[1] ، ومن هذا الحديث تستنتج أن الإنسان منا يخلقه الله تعالى على الفطرة، وهى تعنى عند المفسرين على الاسلام، فيأتى مهيأ للخير، مزودا بالأدوات السليمة مثل القلب والعقل، الذى يمكنه من الوقوف على طبيعة المعرفة بنفسه، وبالعالم الذى يحيط به، ومايصلح من هذه الأدوات التى زوده الله بها لهذه المعرفة ومايصلح لتلك، ولكن تأتى البيئة التى تبدأ بالأبوين، فتنحرف به ذات اليمن وذات الشمال، سواء بالنسبة لما يتعلق بالعقيدة التى يطبعونه عليها، أو بكيفية النظر الى العالم من حوله.

وترتيبا على هذا نرى أنه من المفيد ونحن بصدد الحديث عن التربيه الاسلاميه التى ينبغى أن يربى عليها النشئ المسلم، أن نحدد طبيعة ومصدر المعرفة بالنسبة له. فبالنظر الى المعرفة الاسلاميه أو المعرفه الانسانيه بهذا المعنى الاسلامي نجدها تتحدد فى نوعين : معرفه انسانيه بشريه، ومعرفه الهية، وكلاهما يرجع الفضل فى تحقيقهما للانسان الى الله سبحانه وتعالى، لأنه هو سبحانه الذى وهب للانسان الأدوات اللازمه للتحقق وتحصيل المعرفه البشريه من حس وعقل أو فؤاد فضلا عن معونته وتسديده نحو حسن استخدام هذه الأدوات من أجل تحصيل ماحصل من ألوان هذه المعرفه، وهو سبحانه وتعالى أيضا الذى

---

١ - سورة الروم أية ٣٠، وانظر صحيح مسلم، كتاب القدر.

يدفع بالمعرفه الالهيه الى من يستحقونها، ويعون أنفسهم برعايته وتسديده أيضا لتقبل أنواع المعرفه الالهيه، والانسان مطالب بالسعى نحو تحصيل المعرفه، لأنه يولد وهو خلو منها تماما، يقول تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)[١] فالجميع يولد وهو لا يعلم شيئا ثم يبدأ فى تحصيل العلم والمعرفه مع مشوار العمر الذى كتبه الله له فى الحياة.

ومن الأوان المعرفه الانسانيه، تلك المعرفه التى يحصلها الانسان وخاصه فى بدايه حياته عن طريق تقليده للآخرين، كما يحصل بالنسبة للطفل فى تقليده لأبويه ولمن يحيطون به، كما أنه قد يستمر هذا النهج فيما بعد مرحلة الطفولة، ولظروف معينه، ولهذا النوع من المعرفه أشار القرآن الكريم فى قوله تعالى بشأن ابنى آدم، عندما قتل قابيل هابيل، ونظر الى أخيه بعد قتله له لايدرى ماذا يفعل فيه. هنا بعث الله له غرابا ليعلمه عن طريق التقليد ماذا يفعل، فقال سبحانه (فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأه أخيه، قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأه أخى فأصبح من النادمين)[٢]

وقد اورد الطبرى فى تفسير هذه الآيه مايشير الى أنه لما قتل قابيل هابيل وعجز عن أن يوارى جثه أخيه، فان الله سبحانه وتعالى بعث اليه بغرابين أخذا يقتتلان حتى قتل أحدهما الآخر فحفر له فى الأرض ووضعه ثم أزاح عليه التراب،

---

١ - سورة النحل آية ٧٨.

٢ - سورة المائدة آية ٣١.

وفى روايه أخرى ان الله بعث أمامه غرابا حيا الى آخر ميتا، وأخذ الحى يفعل بالميت مثل سابقه. وفى روايه ثالثه بعث الله اليه بغراب أخذ يحفر فى الأرض ويزيح التراب، ومن أى من الصور التى جاءت عليها الروايات الثلاثه تعلم قابيل عن طريق تقليد الغراب فيما فعل كيف يوارى سوءة أخيه[١]

كما أنه ايضا تعد الخبرة مصدرا من مصادر المعرفة البشرية، والخبرة تعنى ذلك التراكم من المعرفه الذى يحصل للبشر من خلال تجاربهم الماضيه ويتوارثها جيل بعد جيل، ولهذا أيضا جذوره فى التراث الاسلامى، ولعل من أشهر وأصدق الأقوال فى هذا ماروى عن موسى بن طلحه عن أبيه قال : مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على رؤوس النخل فقال : ما يصنع هؤلاء ؟ قالوا : يلقحونه يجعلون الذكر فى الأنثى فتلقح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما أظن يغنى ذلك شيئاً «قال : فأخبروا بذلك فتركوه، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: «ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فانى ما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن، ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فانى لن أكذب على الله عز وجل «وفى روايه أخرى : «عن عائشة وعن ثابت بن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحونه فقال : «لو لم تفعلوا لصلح « قال : فخرج شيصا، فمر بهم فقال : «مالنخلكم» قالوا : قلت كذا وكذا . قال : أنتم أعلم بشئون دنياكم»[٢] ولايعنى هذا العلم بشئون الدنيا الا الخبرة المتراكمة لديهم من التجربه والخطأ، والتى عرفوها بأنفسهم، او توارثوها عن الأجيال السابقه عليهم. كما روى

---

١ – انظر : تفسير الطبرى جـ ١٠ ص ٢٢٤ ومابعدها.

٢ – صحيح مسلم، كتاب الفضائل.

الامام النووى أن آدم عليه السلام أوصى بنيه بوصايا جاء فيها «أنه قال لبنيه : اذا اردتم فعل شئ فانظروا فى عاقبته، فانى لو نظرت فى عاقبه الأكل ما أكلت من الشجرة »[١] . وفى هذا اشارة أيضا الى مبدأ التعلم من الخبرة السابقة، فلو تريث آدم عليه السلام وسأل نفسه لوقف على علمه السابق بما أمره الله به من عدم الأكل من الشجره، كما عرف أيضا ففيه مخالفه هذا الأمر الالهيي، ولانتهى بنفسه عن الأكل من لاشجرة، ولكنه لم يفعل.

كما يعد مبدأ الشورى أيضا مبدأ أساسيا من مبادئ المعرفه الانسانيه فى الاسلام، وقد تأكد ذلك بالقرآن الكريم فى قوله تعالى : (وشاورهم فى الأمر)[٢] ، وقوله عز وجل حينما مدح الأنصار رضى الله عنهم، (وأمرهم شورى بينهم)[٣] ، كما جاء أيضا فى وصايا آدم لبنيه فيما رواه الامام النووى أنه قال : اذا اردتم فعل شئ فاستشيروا الأخيار، فانى لو استشرت الملائكة لأشاروا على بترك الأكل من الشجرة.[٤]

كما تحمل كل كتب السيرة النبويه العديد من صور مشاورة الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه فيما يخص المسلمين، حتى ينتهى الى اتخاذ القرار الذى يراه، ولكن بعد المشاورة حدث ذلك يوم بدر، وحدث يوم احد، كما حدث فى غزوة الخندق، وفى بدر استشار وأخذ برأى الحباب بن المنذر الذى نزل فيه جبريل يشير

---

١ - الاربعين النووية وشرحها ص ٦١.

٢ - سورة آل عمران أيه ١٥٩.

٣ - سورة الشورى ايه ٣٨.

٤ - الاربعين النووية وشرحها ص ٦١.

الى الرسول صلى الله عليه وسلم بأ الرأى ما رأى الحباب، فيأخذ الرسول به ، كما يأخذ صلى الله عليه وسلم برأى الصحابه فى الخروج يوم أحد، ويأخذ كذلك برأى سالمان الفارسى بحفر لخندق فى غزوة الخندق.

كل هذه المبادئ المعرفيه سواء مايتعلق منها بالتقليد والمحاكاه، أو الخبرة، أو الشورى ، فلكلها أسس بشريه تتعلق بقدرات الانسان وامكاناته، مما ينبغى على التربيه الاسلاميه العمل على تنميتها، ورعايتها فى الناشئة من المسلمين، بحسب نوعيه المعرفه، وكلها مرتبطه بقوة العقل الذى يعد الأداة الفاصلة فى كل ذلك.

أما عن النوع الآخر من المعرفه فى الاسلام، والذى عرف بالمعرفه الالهية، كما عرف بالمعرفه «النقلية» ويقصد به مجموعة المعارف المتعلقه بالشريعه وأصول الدين، ومانتضمنه من معرفه بما يعرف بالسمعيات. أى تلك المعارف التى يطالب الانسان المسلم بمعرفتها وتصديقها سمعا، أى تواترا عن الكتاب والسنة، وعلى التربيه الاسلاميه أن تؤكد فى تربيه النشئ المسلم على ماهية هذه المعرفه وخصائصها وعدم صلاحية العقل الانسانى للخوض فيها، لأنها تتعلق بالغيبيات التى لاتصلح للوضع أمام العقل، أو انها لاتقع فى دائرة امكانيات العقل البشرى المحدود، وخوض الانسان فيها قد لاتحمد عقباه، خاصه مايتعلق منها بأمور العقيدة.

ومصدر هذه المعرفه الالهية مصدر الهى يرد الى الانسان من قبل الله سبحانه وتعالى، اما عن طريق الكتاب والسنه، واما عن طريق مباشر، وحيا أو حدساً، حسب رتبه الانسان واستعداده لتلقى هذا النوع من المعرفه أو ذاك. فمن قبيل النوع الأول ما ورد بشأنه قول الله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة والوسطى وقوموا لله قانتين فان خفتم فرجالا أو ركبانا فاذا أمنتم فاذكروا

الله كما علمكم الله مالم تكونوا تعلمون)[١] ، وقوله تعالى (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون)[٢]، وغير ذلك من الايات الكثيره التى وردت تعلم الناس مايجب عليهم من عبادات من نحو الصلاة، والزكاه والصيام والحج، كما أنه وجد من الآيات مايعلم الناس هذه العبارات بمعناها الضيق، وغيرها من أساسيات السلوك الأخلاقى، من نحو قوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب، وأقام الصلاة وآتى الزكاه والموفون بعهدهم اذا عاهدوا، والابرين فى البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون.[٣]

ومن المعرفة الالهية أيضا ماخص الله تعالى به طائفة اصطفاها من البشر، وهم الرسل والأنبياء، عليهم السلام، ومن نحو ما اختص به سيدنا الخضر عليه السلام من معرفة لدنيه، يقول تعالى: (فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناه رحمه من عندنا وعلمناه من لدنا علما)[٤] . وقصته مع سيدنا موسى معروفه وتشير الى أن سيدنا موسى رغم مكانته أيضا لم يستطع الوقوف على كنه ماعلمه الله سبحانه وتعالى للخضر عليهما السلام، وهو الذى أشار اليه قوله تعالى على لسان الخضر (مافعلته عن امرى ذلك تأويل مالم تستطع عليه صبرا)[٥] وهو من قبيل العلم الذى علمه الله سبحانه وتعالى يعقوب عليه السلام، فى قصه يوسف وأخوته، فنراه

---

١ - سورة البقرة الآية ٢٣٨، ٢٣٩.

٢ - سورة البقرة الآية ١٥١.

٣ - سورة البقرة آية ١٧٧.

٤ - سورة الكهف ايه ٦٥.

٥ - سورة الكهف ايه ٨٢.

بالرغم من عودة أبنائه اليه بعد أن غيبوا أخاهم يوسف فى غيابه الجب، وهم يزعمون له أن الذئب قد أكله، نجده يقول لهم (قال بل سولت لكم انفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون)[١] بل وظل يذكر يوسف بالرغم من مضى السنين، بل ويعلم من الله أنه بخير، ويحث أبناءه على الذهاب والبحث عنه وعن أخيه حتى يضجروا منه لأن الله تعالى لم يعلمهم ما علم أباهم، **يقول تعالى** (قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين قال انما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم ماتعلمون يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه ولاتيأسوا من روح الله انه لايأس من روح الله الا القوم الكافرون)[٢]

وظل يعقوب على هذا اليقين الذى وقف عليه مما علمه الله حتى أعاد الله اليه يوسف وأخاه **يقول تعالى** (ولما فصلت العير قال أبوهم أنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم أنى أعلم من الله مالاتعلمون)[٣]

هذان هما نوعا المعرفه الاسلاميه، المعرفه البشريه وأدواتها تقوم على الحس والخبر الصادق والعقل، وهى فى جملتها قد تلتقى مع هويه المعرفه عند غير المسلمين، والمعرفه الالهية التى يقرها الاسلام، وينبغى أن تكون موضع عنايه التربيه الاسلامية وبها ينبغى أن يتميز النشء المسلم لأهمية دورها فى تثبيت عقيدته، التى تمثل أساسا لاغنى عنه فى بناء الفرد المسلم.

---

١ - سورة يوسف آيه ١٨.

٢ - سورة يوسف آية ٨٥ - ٨٧.

٣ - صورة يوسف آيةة ٩٤ - ٩٦

الحريه والتربيه الاسلامية.

اذا تركنا مجال نوعية المعرفه التى ينبغى أن تسعى التربية الاسلامية بناشئيها الى تحصيلها، وانتقلنا الى الفرد نفسه الذى يقوم بتحصيل هذه المعرفه من خلال جهاز دقيق للتربيه الاسلامية، نرى أنه لابد لهذا الجهاز بدوره من أن يوفر الحرية لهؤلاء النشء فى طلبهم للعلم والمعرفة، بل ما أجراه من أن الى غرس هذه الحريه فى نفوسهم وتنميتها كيقيمة لابد منها للانسان ، وكحق طبيعى كفلته له العقيدة الاسلامية التى يحيا فى ظلها، ويتحلى بقيمها الساميه.

والأمر بالنسبة لنا كأمة عربية اسلاميه يعد فى غايه الأهمية، خاصه ونحن بصدد اعادة بناء أو تجديد هذه الأمه فكريا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا، وان لم يحصل الفرد فيها على حريته فسيظل انسانا ناقصا، عاجزا، لايمكن أن تقوم عليه وبه الامه التى ينتظرها أبناؤها، لأنهم بدون الحريه سيظلون مكبلين داخل نفوسهم على الأقل، وان كان ذلك بالتأكيد سيجعلهم مستذلين لغيرهم من شعوب الأرض، وبما أن الحريه لا توهب أو تمنح من قبل الغير أيا كانت مكانته الاجتماعيه أو السياسيه فمن الأحرى اذا أن يقوم ولى الأمر على مستوى الأسرة أو على مستوى الدولة برعاية أبناء أسرته أو رعيته لكى يصبروا مؤهلين لأن يكونوا أحرارا، ولايمكن أن يحدث كل ذلك الا من خلال نظام تربوى ومحكم.

وفلسفة الاسلام قد تضمنت المقومات الأساسيه التى يمكن أن يقوم عليها نـظام تربوى يكفل توفر الحريه لأفراد المجتمع الاسلام، بل ذلك الاسلام الى أبعد من ذلك فرأى فى الحريه أمرا ضروريا لابد منه للانسان المسلم، وعندما كفل له ذلك كانت الأمة الاسلامية العظيمة بعظمة أفرادها الأحرار الذين حققوا نجاحات مختلفه فى جميع الميادين، وعلى كافه المستويات، وعندما ضعفت هذه الأمة وضعف الأسلام فى نفسو أفرادها، تبع ذلك أيضا التدهور والانحطاط الحضارى والثقافى

والسياسى على كافة المستويات أيضا.

والاسلام قد أكد على أن الله تعالى قد أراد للانسان أن يكون حرا فى الحدود التى خلقه عليها، وبحسب الطبيعة البشريه التى فطره عليها أيضا، ولنقرأ معا قول الله تعالى (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)[١] فجعل الانسان حرا فى أخطر قضية ألا وهى قضية الايمان والكفر، نعم .. والا فكيف يكون الانسان مسئولاً أمام الله تعالى عن ايمانه وعن كفره ان لم يكن حرا فى ذلك ، وكيف يكون بالتالى مستحقا لما يترتب على ذلك من جزاء فى الدنيا وفى الأخرة.

كما يسخر القرآن الكريم ممن يتنازلون عن هويتهم الحرة، والمتضمنه ضرورة التفكير الحر فيما يواجههم من قضايا، ويسلمون قيادهم لغيرهم، ويجعلون أنفسهم تابعين لهذا الغير، سواء كانوا على صواب أو على خطأ، فيقول سبحانه وتعالى (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعلمون شيئا ولايهتدون)[٢] . ويتعلق البعض ببعض الآيات القرآنية، فيقف عند ظاهرها فقد دون ان يضعها فى سياقها ليستدل بها على ماينافى القول بحرية الانسان المسلم من نحو قوله (وماتشاءون الا أن يشاء الله)[٣] ، فى حين أننا لو تدبرنا هذا القول، ووضعناه فى سياقه، لما وجدنا فيه شيئا مما زعموا، يقول شيخ الاسلام ابن تيميه فى تفسير هذه الآية، وقوله

١- سورة الكهف آية ٢٩.

٢ - سورة المائدة آية ١٠٤.

٣ - سورة الانسان ايه ٣٠.

(وماتشاؤن الا أن يشاء الله) لايدل على أن العبد ليس بفاعل لفعله الاختيارى، ولا أنه ليس بقادر عليه، ولا أنه ليس بمريد، بل يدل على أنه لايشاؤه الا أن يشاء الله. وهذه الآيه رد على الطائفتين : المجبره، الجهمية والمعتزله القدريه، فانه تعالى قال (لمن شاء منكم أن يستقيم)فاثبت للعبد مشيئه وفعلا، ثم قال : (وماتشاؤن الا ان يشاء الله رب العالمين) فبين أن مشيئة العبد معلقه بمشيئة الله)[١]

واذا انتقلنا الى الفقهاء وجدناهم يؤكدون على ضرورة الحريه التى عبروا عنها بالنية أو القصد (العمد). والتى بدونها لايصح التكليف الذى يمثل لب العقيده فى الاسلام ، ومن هنا وجدناهم يربطون بين العمل وبين النيه أو القصد، والا أصبح العمل – فى رأيهم – عملا مجرداً لايقع تحت التكليف، مستندين فى ذلك على قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «انما الأعمال بالنيات، وانما لكل امرئ مانـوى».[٢]

وترتيبا على هذا يخرجون من الأفعال الواقعة تحت التكليف أفعال المجنون والصبى والنائم، والمغمى عليه، كما يخرجون الأعمال الصادرة عل الخطأ والنسيان على أساس أنها كلها أعمال لايتوفر فيها القصد والنية بمعنى الحرية الواعية، معتمدين فى ذلك على مايؤيد قولهم من النصوص فى الكتاب والسنة، من نحو قوله تعالى (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم)[٣] وقوله عز وجل (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او أخطئنا)[٤] . ومن السنة من نحو قوله صلى

---

١ – شيخ الاسلام احمد بن تيمية : الفتاوى جـ ٨ ص ٤٨٨ .

٢ – انظر : صحيح البخارى ط الشعب جـ ١ باب الايمان ص ٢١.

٣ – الأحزاب /٥

٤ – البقرة / ٢٨٦.

الله عليه وسلم، رفع القلم عن ثلاث : الصبى حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق «كما يخرجون أيضا من مجال التكليف تلك الأعمال التى لايطيقها الانسان على أساس أن تكليف مالا يطاق غير واقع فى الشريعة، وتكليف مالا قصد له تكليف مالا يطاق.[١] يقول تعالى (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه)[٢] . ومن كل هذا نرى مدى اهتمام الفقهاء بقضية الحرية، على أساس أنها شرط ضرورى فى مجال التكليف الدينى .

وقد اهتم علماء الكلام أيضا بموضوع الحريه وخاصه جماعه المعتزله منهم، الذين يعدون بحق أكثر المتكلمين مناصرة لحرية الارادة، وضرورتها، خاصه فى مجال التربيه والأخلاق، وعليها يرتبون المسئوليه واستحقاق الجزاء بالمدح أو الذم وفى هذا المجال نرى **القاضى عبد الجبار** يشترط لذلك ضرورة «أن يكون الانسان مخلى بينه وبين الفعل (أى حرا) لأن المحمول على الفعل بالالجاء لايستحق المدح على فعله»[٣] . والتخلية او رفع الالجاء فى الفعل لايعنى الا اثبات ضرورة الحرية، واذا تركنا المعتزله الى غيرهم من المتكلمين الذين جاهروا بمناصره الحريه وأهميتها بالنسبة للانسان فاننا واجدون المدرسة الماتريديه التى يناصر شيخها الامام أبو منصور الماتريدى قضية الحرية، ويعبر عنها أيضا بالقصد ، فعنده «تقع أفعال الانسان الاختياريه بقدره واستطاعة يخلقها الله فى الانسان عند قصد اكتساب الفعل بعد سلامة الأسباب والآلات . فعند قصد فعل ما من الأفعال مع

---

١ - انظر : الغزالى : المستصفى جـ ١ ص ٢٧ - ٢٨، والأحكام للامدى ص ٩٧ - ١٣٠، والموافقات للشاطبى جـ ١ ص ١٠٩ ومابعدها.

٢ - البقرة /١٧٣.

٣ - القاضى عبد الجبار : المغنى جـ ١١ (التكليف) ص ٥١٣.

توفر أسبابه وآلاته يخلق الله تعالى قدره هذا الفعل. واستحقاق الذم والعقاب أو المدح والثواب على فعل ما من الأفعال مؤسس على هذا القصد، لأن الانسان عندما يقصد فعل الشر فيخلق الله له قدرة فعل الشريكون هو المضيع لقدرة فعل الخير بعدم القصد اليه، وعندما يقصد فعل الخير يخلق الله له قدرة فعل الخير ويستحق المدح والثواب على قصده الخير. فالفعل في ذاته ليس مناط الثواب والعقاب، وانما الثواب والعقاب على الفعل باعتبار القصد اليه يدل على ذلك أن الفعل من غير قصد اليه كفعل النائم والمجنون لايؤسس عليه ثواب أو عقاب».(١)

ومن هذا كله تتضح أهمية الحرية في الفكر الاسلامي، وعليها تترتب قضية التكليف الديني والأخلاقي للانسان، ولكن لايمكن لهذه الحريه أن تتوفر للانسان دون شروط ومن أول شروطها شرط العقل، وللتربيه دور أساسي في تربيه العقل الانساني وتنميته، ولايتم ذلك الا يتم ذلك الا بتعهد الانسان منذ طفولته، وفي صباه وشبابه وحتى أخر حياته. وبالعقل يتحقق الشرط الثاني للحريه وهو العلم، والعلم يكتسب أيضا بالتربيه، كما يعتبر شرطا ضروريا لتحقق الحريه للانسان، ولأنه بدون العلم، الذي يستطيع الانسان عن طريقه ادراك ومعرفه كنه الأشياء والأفكار ، والتمييز بين الخير منها والشرير، حتى يستطيع أن يختار بحريته الاقبال على هذا أو ذاك منها .. نقول بدون هذه المعرفه لايمكن أن نقول على سلوك له أو فعل انه سلوك أو فعل حر، ومن ثم فلايمكن للحريه «أن يستقيم عودها مع الجهل ، فكيف يكون الانسان حرا لفهم ماحوله من ظواهر الكون والحياة والتفاعل الاجتماعي الرشيد وهو جاهل. ان الجهالة قيد على عقله وفكره وبالتالي لايمكن

---

١ - ابو منصور الماتريدي : كتاب التوحيد، تحقيق د. فتح الله خليف، مقدمة المحقق ص٤٢

ن يكون حرا. وهناك مثل معروف يقول : كلما تعلم الانسان زادت حريته. ولهذا فان ذكاء الانسان، وتثقيف عقله وفكره ضرورة تفرضها حريته، وعلى أى برنامج تربوى أن يولى هذه الجوانب عنايه كبرى.(١)

كما أنه أيضا للتربيه النفسيه دور كبير فى تحقيق هذه الحرية للانسان ، تلك التربيه التى تمكن الانسان من الوقوف والتصدى ضد أى عائق من العوائق التى تقف حائلا دون اختياره الحر، سواء كان هذا العائق داخليا كرغبه أو دافع طبيعى، أم كان عائقا اجتماعياً مثلما يكون فى البيئة من عادات او تقاليد أو غير ذلك من الأمور الاجتماعيه التى قد تحول دون تحقيق الحرية، لأن الانسان لايستطيع ادعاء حريته وهو فى الواقع عبد لنزعات النفس وخلجاتها وعبد للعادات والتقاليد التى كونها خذ مثلا الشخص الذى أصبح التدخين عادة متمسكه لديه ومستحكمه فيه، هل يستطيع أن يمتنع عنها؟ انه قد يدخن رغم أنفه بحكم قوة العادة وسيطرتها عليه حتى مع أنه من الناحيه العقلانيه يعرف مضار التدخين على ماله وصحته. فهل يعتبر هذا الاسنان حرا؟

ان حريه الاراده شرط ضرورى لحريه الانسان ولايمكن لانسان أن يكون حر الاراده وهو غير قادر على التحكم فيها، اذ أنه يستسلم لرغباته ونزواته أو دوافعه الجامحة ، ولذلك يجب على التربيه أن تهدف الى غرس العادات عند الانسان منذ بواكير الطفوله، وأن تهتم بالقدوة الصالحة والبعد عن قرناء السوء، وأن تربى الفرد على التحكم فى نفسه ليستطيع أن يكبح زمامها، وأن يسيطر عليها، كما ينبغى أن نربى ضمير الفرد لأنه خير عاصـــم له، عند ذلك يمكن أن يكون الانسان حرا.(٢)

---

١ - د. محمد منير مرسى : التربيه الاسلامية، عالم الكتب، مصر سنة ١٩٨٣، ص ١١٩.

٢- المصدر السابق ، ص ١٠.

ولابد كذلك لبرامج التربيه والتعليم أن تؤكد وتنمى هذا المعنى فى أذهان النشء من أبناء المسلمين منذ طفولتهم، بالقدر الذى يستوعبونه، ويتمشى مع قدراتهم فى مراحلهم السنية المتواليه سواء كان ذلك فى المنزل أو فى المدرسة، كأن نربى أطفالنا على أن يكون لهم قدر من الحريه فى اختيار ما يخصهم أو التعبير عن رأيهم فى الاطار الذى يمكن أن يدركوا معه ماهية الأشياء أو الأمور التى يختاروا من بينها مايشاءون بحريه .. على أن يكبر وينمو ذلك معهم مع نمو شخصيتهم.

حتى اذا ماوصلوا الى سن النضج أمكنهم أن يكونوا أحرارا فى كل مايختارون من أشياء ومايعبرون عنه من آراء، كما يكون لكل منهم شخصيته الحرة القادرة على الابداع والاضافة والمشاركة فى بناء المجتمع الذى يعيشون فيه وينتمون اليه، رافضين أن يكونوا امعات تابعين لغيرهم، تبعية المسود للسيد، فلايكون لهم ابداع ولا اضافة، بل لايكون لهم أثر فى مجتمعهم على الاطلاق، وهو الأمر الذى ينبغى للتربيه الاسلامية أن تقوم عليه، لتجنب المجتمع من أن يكون أبناؤه من هذا الطراز الأخير.

فلسفة الجزاء فى التربيه الاسلامية

وترتيبا على كل ماسبق، وبصفه خاصه على اثبات كون الانسان حرا فيما يأتى من أفعال ، فلابد من أن يترتب على هذا كله كونه مسئولا عما يأتى من أفعال خيرا كانت أم شرا، وعلى هذه المسئوليه يترتب الجزاء بالخير على الفعل الحسن، وبالعقاب على الفعل الردئ ، والا صارت هذه المسئوليه بلا معنى. والتربيه الاسلاميه قد استخدمت هذا كله ووظفته من أجل تحقيق أهدافها التى ترجو لنشء المسلمين أن يدركوها.

وفلسفه الجزاء فى الاسلام تقوم أساسا على أن الانسان بطبعه غير معصوم من الخطأ، وبالتالى فهو معرض لأن يخطئ دون أن يقلل ذلك من قيمته كانسان، ومن هنا كان العقاب كواحد من أنواع العلاجات التى تخلص الانسان من الخطأمع المحافظة على صحته النفسية، ودعوته الى العمل خالصا من الخطأ، وحمايته كذلك من الوقوع فى اليأس الذى يعوق صاحبه عن مواصلة العمل من أجل الوصول الى الأفضل، وتحمل المسئوليه، فاذا كانت العقيدة المسيحية قد ربطت بين الانسان وبين الخطيئة المطلقة منذ آدم وحواء عليهما السلام، الأمر الذى جعله يتعثر فيها، ويصور له الحياة على أنها بحر من الأحزان لايمكن للانسان التخلص منه الا بمحاربه الحياه الدنيا برمتها، حيث تحل الخطيئة ويتجه الى العالم الآخر (١) فان العقيدة الاسلامية أو التربيه الاسلامية لم ترض بهذا ووضعت الحل الذى يتمكن معه الانسان أن يسترد صحته النفسيه، ويتخلص من خطيئته المطلقة، أو أنه لايشعر بوجود تلك الخطيئة المطلقة التى تصورها الانسان المسيحى، كما يمكنه ايضاً أن يتخلص به (أى بهذا الحل) من أى خطيئة قد يقع فيها فى حياته الدنيا بانحرافه عن جادة الصواب، فلا تصير ثقلا على نفسه، وقد تمثل الحل الاسلامى لذلك فى التوبة والندم.

ومن خطيئة آدم القديمة قال تعالى (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأزلهما الشيطان عنها وأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر الى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم)(٢) ويقول الطبرى فى تفسير ما يتعلق بموضوعنا فى هذه القصه ان الله

---

١ - انظر : محمد اسد : الاسلام على مفترق الطرق ص ٢٨ - ٢٩.

٢ - البقرة / ٣٥ - ٣٧.

جل ثناؤه لقى آدم كلمات فتلقاهن آدم من ربه فقبلهن وعمل بهن، وتاب - بقبوله اياهن وعمله بهن - الى الله من خطيئته، معترفا بذنبه متنصلا الى ربه من خطيئته، نادما على ماسلف منه من خلاف أمره، فتاب الله عليه بقبوله الكلمات التى تلقاهن منه وندمه على سالف الذنب منه»[١] الأمر الذى لم يبق معه أثر فى نفس الانسان المسلم.

وفى الاطار نفسه قد أولى الاسلام بل التربيه الاسلاميه قضية الرضا عن فعل الخير، والتوبة والندم على فعل الشر أهمية كبيرة، وهو مايعرف باسم محاسبه النفس باستمرار عما يصدر عنها من أفعال، على أن يعقب المحاسبه اعلان الرضا عن الأفعال الخيرة، وطلب المزيد منها كما يقول تعالى (واستبقوا الخيرات)[٢] كما يعقبها اعلان الندم والتوبه عن الأفعال الشريرة مع عدم اليأس والقنوط (ولاتقنطوا من رحمة الله)[٣] أى أن التربيه الاسلاميه تدعو دائماً إلى رضا وتوبة ديناميكيتين يعملان على تربيه الانسان مع المحافظة على صحته عن طريق ترقيته وتطويره من خلال ترقيه وتطوير الذات الانسانيه ككل، وقد يذكرنا هذا بقوله شوبنهور عن الندم (او التوبه) بانه ليس أن يقول النادم (أو التائب) : « آه ياولتاه ماذا فعلت » بل أن يقول : « آه يا ويلتاه أى انسان أنا » أو « أى انسان أنا حتى أقدر على اتيان مثل هذا الفعل »ذلك أن الصيغه الثانيه تدل على أن الفعل صدر عن جوهر الانسان كله، وبالتالى فان الندم لايتعلق بفعل مفرد، بل بكيان الشخص كله، ويرتبط بالشخص ارتباطا عضويا، بحيث يدهش النادم كيف صدر عن كيانه مثل هذا

---

١ - تفسير الطبرى بتحقيق احمد شاكر ج١ ص ٥٤٦.

٢ - البقرة /١٤٨.

٣ - سورة الزمر ايه ٥٣.

الفعل هذا الفعل، وكأنه يقول : «ماذا دهى الذات حتى تقدر على ارتكاب هذا الفعل، وهذه النتيجه الايجابيه التى ربط فيها شوبنهور بين الندم وبين الذات ككل هى التى تشارك فى تربيه الضمير الانسانى، فى تربيه الانسان، وهو ماتتفق فيه وجهة نظر شوبنهور مع وجهة النظر الاسلامية، أما الربط بين الشعور بالرضا وبين الحركة المستمرة فى الفعل، والبعد به عن السكون والسلبية فقد وافق فيها «جانكفيتش» وجهة النظر الاسلامية بقوله : «ان الرضا السكونى يتكور فى الفعل المنجز كما يتحجر الالهام الملهم فى الأعمال الملهمة، وكما تسكن السورة الحيوية وهى تدور حول نفسها فى مكانها فى الأجهزة العضوية.(١)

ومن خلال هذه الحركة التى تميز الندم والرضا يتكون الضمير الأخلاقى، ويقوى باستمرار، فبالرضا يستزيد من الخيرات، وبالندم يتخلص شيئا فشيئا من السيئات.

فى ضوء هذه الفلسفة الاسلامية للجزاء تتم عملية العقاب كحلقة من حلقات التربيه الاسلامية، وهى ضرورية عندما يتوقف النشء عن مواصلة الاستجابه للعمليات التربوية، مما يحتم على المربى أو المعلم مزاولته اذا ما اقتضت الظروف ذلك، ولكن بشروط معينة، ذلك لأن الأساس فى العلاقة بين المعلم أو المربى ، وبين تلاميذه تقوم على النصح لهم والرفق بهم، يقول الماوردى عن آداب المعلمين وعلاقتهم بطلابهم «ومن آدابهم نصح من علموه، والرفق بهم، وتسهيل السبيل عليهم، وبذلك المجهود فى رفدهم ومعونتهم ، فان ذلك أعظم لأجرهم، وأسنى لذكرهم، وأنشر لعلومهم، وأرسخ لمعلومهم، وقد روى عن النبى صلى الله

---

١ - انظر : د. عبد الرحمن بدوى، الأخلاق النظرية، ص ٨٤، ٨٨.

عليه وسلم أنه قال لعلى كرم الله وجهه « ياعلى .. لأن يهدى الله بك رجلا خير مما طلعت عليه الشمس».

وعن رفق المعلمين بالمتعلمين قال « ومن آدابهم أن لايعنفوا متعلما ولايحقروا ناشئا، ولايستصغروا مبتدئا، فان ذلك أدعى اليهم، وأعطف عليهم، وأحث على الرغبة فيما لديهم، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم، انه قال : «علموا ولاتعنفوا، فان المعلم خير من المعنف » وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «وقروا من تتعلمون منه، ووقروا من تعلمونه»»(١)

ولكننا اذا كنا قد أكدنا من قبل ان العلاقه بين المعلم والمتعلم لابد وأن تقوم أساسا فى التربيه الاسلامية على الحب والنصح والرفق، فان هذا الأسلوب قد يجدى مع البعض أو ربما قلنا مع الأغلب من الناشئة الا أنه قد لايجدى مع البعض الآخر، الذى يتعرض للوقوع فى الخطأ، وقد يصر عليه، كما قلنا أيضا من قبل أن الاسلام ينظر الى الانسان على أنه ليس معصوما من الخطأ، ومن أجل هذا شرع من أجل التربيه الاسلاميه العقاب، بالقدر المعقول والكفيل باشعار الناشئ بخطئه، ودفعه نحو الاقلاع عنه، والاتجاه فى طريق الصواب، ولكن دون مبالغ فى التشدد فى العقاب، وقد حذر ابن خلدون من مغبة المبالغة فى العقاب فقال: «ومن كان مرباه بالعسف والقهر سطا به القهر، وضيق على النفس فى انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعا الى الكسل، وحمل على الكذب والحنث، وهوالتظاهر بغير مافى ضميره خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه».

ولم ينس علماء التربية التنبيه على ألا يقتصر الجزاء على العقاب، بل لابد أيضا من أن يكون للجزاء ثوابا على الاجابة نصيب فى العملية التربوية، يؤكد ذلك

---

١ - ابو الحسن الماوردى : أدب الدنيا والدين، ص ٩٢.

الدكتور سعيد اسماعيل فى قوله عن ابن جماعة : «وقد أظهر ابن جماعة فى آرائه التربوية وعيا بضرورة الربط بين العمل والجزاء، وأن هذا من شأنه أن يشجع الطالب المصيب أن تثبت لديه مهارات العمل الجيد، وأن يتعلم الطالب المخطئ أوجه الخطأ فيتلافاها فيما بعد، فقال بعد أن طالب المعلم بالقيام بعملية تقويم للتلاميذ بسؤالهم عما تلقوه: «فمن رآه مصيبا فى الجواب ولم يخف عليه شده الاعجاب، شكره وأثنى عليه بين أصحابه، ليبعثه واياهم على الاجتهاد فى طلب الازدياد، ومن رآه مقصرا ولم يخف نفوره، عنفه على قصوره وحرضه على علو الهمة، ونيل المنزله فى طلب العلم، لاسيما ان كان ممن يزيده التعنيف نشاطا والشكر انبساطا»(١)

كما اكد علماء التربيه أيضا فى تقريرهم للجزاء وخاصة الجزاء عقابا من أن يكون الجزاء بقدر الجرم، ولا بأس أن يأتى ذلك لكله بصورة متدرجة، ولا تمس كرامة الانسان فى المتعلمين ، وهو مايورده الدكتور سعيد اسماعيل فى موضع لاحق عن عالم التربيه الاسلاميه نفسه - ابن جماعة - فيقول : «وفى موضع أخر يسوق ابن جماعة رأيا أكثر صوابا، وخاصة بالنسبة للتلميذ المخطئ فيقول مطالبا المعلم «أن يراقب أحوال الطلبة فى آدابهم وهديهم، وأخلاقهم باطنا وظاهرا، فمن صدر منه من ذلك مالا يليق من ارتكاب محرم أو مكروه، أو مما يؤدى الى فساد حال، أو ترك اشتغال، أو اساءه أدب فى حق الشيخ أو غيره، أو كثرة كلام بغير توجيه وفائدة، أو حرص على كثرة الكلام، أو معاشرة من لاتليق عشرته، أو غير ذلك .. عرض الشيخ بالنهى عن ذلك بحضور من صدر منه غير معرض به

---

١ - ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص ٥٤، والدكتور سعيد اسماعيل على : دراسات فى التربية الاسلامية ص ٣٩.

ولامعين له، فان لم ينته نهاه عن ذلك سرا، ويكتفي بالاشارة مع من يكتفي بها، فان لم ينته نهاه عن ذلك جهرا، ويغلظ القول عليه ان اقتضاه الحال لينزجر هو وغيره ويتأدب به كل سامع، فان لم ينته فلا بأس حينئذ بطرده ، والاعراض عنه الى أن يرجع، ولاسيما اذا خاف على بعض رفقائه وأصحابه من الطلبة موافقته..»(١)

كما نجد من **علماء التربية** من يدعو الى التدرج فى العقاب من الأخف الى الأشد فيقرر درجات العقاب على الترتيب التالى : النصح والارشاد، ثم التانيب على انفراد، ثم التقريع على رؤوس الأشهاد، ثم الضرب آخر الأمر اذا لم تصلح الاجراءات السابقة، ولكن للضرب أيضا عندهم حدود، يحسب الخطأ الذى ارتكبه التلميذ، يقول القابس فى «**الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين**» «واذا استأمل الضرب فاعلم أن الضرب من واحد الى ثلاث، فليستعمل اجتهاده لئلا يزيد فى رتبة فوق استئهالها، وهذا هو أدبه اذا فرط، فتثاقل عن الاقبال على المعلم ، فتباطأ فى حفظه أو أكثر الخطأ فى حزبه، أو فى كتابه لوحة، من نقص حروفه، وسوء تهجيه، وقبح شكله، وغلطه فى نقطه، فنبه مرة بعد مرة، فأكثر التغافل، ولم يغن فيه العذل والتقريع بالكلام الذى فيه التواعد من غير شتم ولاسب عرض»(٢)

وفى العبارة الأخيرة فى قول «القابس» فضلا عما أحسسنا به فى النصوص السابقة نلحظ الى أى حد حرص المربون والمعلمون المسلمون على

---

١ - ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص ٦٠ - ٦١، ودراسات فى التربية الاسلامية للدكتور سعيد اسماعيل على ص ٤٠ .

٢ - انظر : د. أحمد فؤاد الأهوانى : التربيه فى الاسلام، ص ٣١٤.

التأكيد على حفظ كرامة النشء المتعلم حتى ولو كان صغيرا، ليحفظوا عليه ماء وجهه، ويغرسوا فيه الاحساس بكرامة الشخصية الأنسانيه التى نص عليها دستور الاسلام فى قوله تعالى : (ولقد كرمنا بنى أدم)[1] فحرص القابس على أن يكون الضرب عند استنهاله بدون شتم أوسب عرض، لما فى الشتم والسب من تحقير للشخص، واشعار له بالدونية والمذله. كما أكد القابس أيضا على عملية التدرج فى العقاب، بحيث يكون بقدر الخطأ، فربط بين الخطأ البسيط والضرب ثلاث، ثم ذهب بعد ذلك الى أنه يمكن أن يزاد الضرب من ثلاث الى عشر اذا ارتفع الخطأ وزاد الجرم، فقال : «فان اكتسب الصبى جرما من أذى أو لعب، وهروب من الكتاب، وادمان البطالة فينبغى للمعلم أن يستشير أباه، أو وصيه ان كان يتيما، ويعلمه اذا كان يستأهل من الأدب فوق الثلاث، فتكون الزيادة على مايوجبه التقصير فى التعليم عن اذن من القائم بأمر هذا الصبى، ثم يزاد على الثلاث مابينه وبين العشر، اذا كان الصبى يطيق ذلك. وصفة الضرب هو مايؤلم ولايتعدى الألم الى التأثير المشنع، أو الوهن المضر».

وكذلك نرى التربيه الاسلاميه فى اقرارها للعقاب فى اعتدال تربط بين كم العقاب وكيفه وبين قدرة الطالب على تحمله بقدر الطاقة، وان كان مؤلما فلا يتجاوز ذلك الألم الى الضرر المستشنع، وحتى لانقع فى المحذور الذى حذر منه ابن خلدون من قبل، ففرق بين أن يكون الطالب المخطئ دون الاحتلام، وبين أن يكون قد ناهز الاحتلام ولذلك يقول القابس : « وربما كان من صبيان المعلم من يناهز الاحتلام ويكون سئ الرعية (أى التربيه) غليظ الخلق، لايربعه عشر ضربات عليه، ويرى للزيادة عليه مكانا، وفيه محتمل مأمون فلا بأس - ان شاء الله - من

---

١ - سورة الاسراء أية ٧٠.

الزيادة على عشر ضربات».(١)

خاتمة

بعد هذه الاطلالة فى النظر الى الأصول الاسلاميه الفلسفية التى ينبغى أن تحكم مسيرة النظام الذى يقوم شئون التربيه فى بلادنا الاسلاميه. أرجو أن نكون بذلك قد ألقينا الضوء على وجه المخالفه بين الأصول التى تحكم نظامنا التربوى الذى نسير عليه فى تربيه النشء من أولادنا، والذى يقوم فى جله على ما استوردناه من نظم تربوية غربيــه عليــنا من هنا أو هناك ، وهى أولا قد نشأت فى بيتها انعكاسا لنظم اجتماعية، وعقائد ايمانية، وقيم أخلاقية، مختلفه تماما، وأحيانا مضادة لما تقــوم أو ينبغــى أن تقوم عليه مجتمعاتنا الشرقية العربية والاسلامية من نظم وعقائد وقيم، استقيناها دائماً وأبدا من تراثنا العربى، وعقائدنا السماوية.

وربما استوجب ذلك كله على القائمين على نظام التربيه، فى بلادنا أن يعيدوا النظر فى تلك الفلسفه التى يقوم عليها نظامنا التربوى، والعمل على تدعيم الاصول الفلسفية التى تعبر عن روح أمتنا العربيه، لنتخذ منها أصولا لنظامنا التربوى، خاصة وأننا نعيش فى الآونة الأخيرة نوعا من الصحوة التى يحس معها الجميع بخطورة الضياع أو الذوبان فى كيانات ثقافية غريبة علينا، الأمر الذى يصبح معه انسانا بلا هوية ولامضمون يميزه، ليحكم عليه بالتخاذل والهوان.

وأعتقد أن هذا ليس بالأمر العسير على الباحثين من بيننا المهتمين بشئون التربيه، فالتراث العربى والاسلامى - كما ألمحنا فى اطار هذا البحث - متمثلا فى الكتاب والسنة أولا، وفى كتب التراث المتناثرة هنا وهناك فى مكتباتنا، وقد غطاها

---

١ - دكتور أحمد فؤاد الاهوانى : التربية فى الاسلام، ص ٢١٥.

التراب، مليئة بالكثير والكثير من الأفكار التى لو يمدنا اليها، وتناولناها بروح العصر، لأخرجنا منها الكثير من النظريات التربوية التى قد تفوق فى تكاملها تلك النظريات التى تجذبنا من هنا وهناك، خاصه وأننا نعتقد الاسلام، وبين الوسيطة والاعتدال الذى جاءت هذه الأفكار انبثاقا منه، وهذا هو الأمر الذى نعتقد أننا بنظرياتنا التربوية قد نتفوق على نظريات غيرنا تلك التى افتقرت الى هذا التكامل، لأنها جاءت انعكاسا لفلسفات اما أنها مغالية فى المالية، أو مغالية فى الروحانية أو المثالية.

وكل مانطمع فيه بهذا البحث أن يكون قد أوجد هذا الانطباع عند كل القائمين على شئون التربية فى بلادنا، ليقوموا بما ينبغى عليهم من واجب تجاه هذه الأمة فى مجال اهتمامهم فى التربية.

قائمة باهم المراجع التى وردت فى هذا البحث

١ - ابن تيمية (شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم) الفتاوى، ط الرياض، ١٣٩٨هـ.

٢ - ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م.

٣ - الابيارى (ابراهيم) : الموسوعة القرآنية، نشر مؤسسه سجل العرب، مصر ١٩٧٤م.

٤ - اسد (محمد) : الاسلام على مفترق الطرق، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧١.

٥ - اقبال (د.محمد) : تجديد الفكر الدينى فى الاسلام، ترجمة عباس محمود،

لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٥م.

٦ - الأمدى (سيف الدين ابو الحسن محمد) : الأحكام فى أصول الأحكام، الرياض، ١٣٨٧ هـ .

٧ - الاهوانى (دكتور احمد فؤاد) التربية فى الإسلام، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٨م.

٨ - بدوى (دكتور عبد الرحمن) : الأخلاق النظرية، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٥م.

٩ - البخارى : صحيح البخارى، ط. الشعب، مصر (بدون تاريخ).

١٠ - جلال (د. عبد الفتاح) : من الأصول التربوية فى الاسلام، المركز الدولى للتعليم الوظيفى للكبار فى العالم العربى، مصر ١٩٧٧.

١١ - حسان (عبد الحكيم) : التأثير الأجنبى فى الثقافه العربيه الاسلاميه بحث فى مجله جامعة الملك عبد العزيز - جدة ١٣٩٥هـ.

١٢ - الخطيب (عمر عودة) : لمحات فى الثقافه الاسلامية - مؤسسه الرسالة، بيروت ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

١٣ - دراز (دكتور محمد عبد الله) دراسات اسلامية، دار القلم، الكويت ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

١٤ - سالم (دكتور محمد رشاد) المدخل الى الثقافه الاسلاميه، دارالقلم ، بيروت ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧م.

١٥ - سليمان (دكتورة فتحية) : التربيه عند الغزالى، أبو حامد الغزالى فى ذكراه،

نشر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة ١٩٦٢م.

١٦ - الشاطبى (أبو اسحق ابراهيم بن موسى اللخمى) : الموافقات فى أصول العفة، ط . المكتبة التجارية، القاهرة (بدون تاريخ).

١٧ - عبد الجبار (القاضى) : المغنى فى أبواب التوحيد والعدل ج ١١ (التكليف) الدار المصريه للتاليف والترجمة، مصر ١٩٦٥.

١٨ - العسقلانى (ابن حجر) : بلوغ المرام من أدلة الأحكام، دار الكتاب العربى، بيروت ، ١٣٧٣هـ.

١٩ - على (دكتور سعيد اسماعيل) : دراسات فى التربيه الاسلامية، عالم الكتب، القاهرة ١٩٧٨م.

٢٠ - الغزالى (أبو حامد محمد) : أحياء علوم الدين، ط . الشعب ، مصر ١٩٦٨.

٢١ - ———————— : المستصفى فى علم الأظول، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية، مصر سنة ١٣٢٢هـ -

٢٢ - الطبرى : تفسير الطبرى للقرآن الكريم، تحقيق أحمد شاكر، ط . دار المعارف، مصر سنة ١٣٧٤هـ.

٢٣ - الطويل (د. السيد رزق) : حق الخطأ والعطاء الاسلامى للانسان، بحث فى المجله العربيه، العدد ١١٢، ١٤٠٧هـ.

٢٤ - قابيل (دكتور عبد الحى قابيل) : المذاهب الأخلاقية فى الاسلام، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٤.

٢٥ - كالجن (دكتور مقداد) : التربية الأخلاقية الاسلامية، مكتبه الخانجى، مصر ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.

٢٦ - الماتريدى (أبو منصور) : كتاب التوحيد، تحقيق دكتور فتح الله خليف، دار المشرق، بيروت ١٩٦٨م.

٢٧ - الماوردى (أبو الحسن) : أدب الدنيا والدين. ط . مصطفى الحلبى، مصر ١٣٧٥هـ.

٢٨ - مرسى (دكتور محمود منير) : التربيه الاسلاميه ، عالم الكتب، مصر، ١٩٨٣م.

٢٩ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى، مكتبة بريل، مدينة ليدن، ١٩٣٦م.

٣٠ - النووى : الأربعين النووية وشرحها، ضمن مجموعة الحديث، ط. الرياض ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩م.